الفصل الثالث

دور النسبوية في فلسفة لورين كود

«المعرفة الكلية غير ضرورية وغير متاحة وكل ما هو متاح وجهات نظر مختلفة، تكون صادقة من بعض الجهات فقط. ولا وجود لأي آراء لا ترتبط بتقليد معين»[1]

- تمهيد
- أولا: تحديد المصطلح
- ثانيًا: مفهوم النسبوية
- ثالثًا: النسوية والنسبوية
- رابعًا: النسبوية الإبستمولوجية
- الخلاصة

(1) بول فيرآبند، ثلاث محاورات في المعرفة، ترجمة ودراسة محمد أحمد السيد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الفلسفة عدد 28، القاهرة، 2017، صـ 26.

الفصل الثالث

دور النسبوية في فلسفة لورين كود

تمهيد

في هذا الفصل سوف نتناول مفهوم النسبوية وتحليل المصطلح وتحديد المفهوم وأبعاده ودلالاته المختلفة، وكذلك موقف النسوية من النسبوية. ثم ننتقل إلى النسبوية الإبستمولوجية، وهي الجزء الأكثر أهمية بالنسبة لموضوع البحث هنا، ثم بعد ذلك يتم تناول موضوعين مهمين باعتبارهما تجليا لتطبيق مفهوم النسبوية كما طرحته كود، وهما: الأهمية المعرفية لجنس العارف، والذات والموضوع من المنظور النسوي.

كان السائد في العلم والفلسفة أن المعرفة العلمية الصحيحة إنما هي التي تصف الواقع كما هو، وتتبع منهجا ثابتا ومحددا من قبل جماعة العلماء، وتسير على خطوات مرسومة بدقة تتميز بالنزاهة والحيادية لإنتاج معرفة مجردة من التحيزات الذاتية، فتصدر عن هذه المعرفة نظريات عامة ومقبولة ومعتد بها. وكان لعقلانية كارل بوبر Karl Popper (1902 - 1994) فيلسوف العلم الشهير دورا بارزا في بناء العقلانية العلمية الجديدة، والتي حاولت رسم الطريق القويمة التي ينبغي أن يسير عليها العلم وفلسفته، ويقول بوبر موضحا أهمية هذه الموضوعية: «في تقديري، يتعين على العلماء الأفراد أن يتحلوا دوما «بالموضوعية والعقلانية»، بمعنى أن يكونوا محايدين غير منحازين. آنذاك،

سـوف نعثر حقيقة على التقـدم الثوري الذي يحرزه العلم والـذي لا تقف في طريقه أية صعوبات كأداء.»[1]

وجـاء من بعده توماس كون في بنية الثـورات العلمية ليوضح لنا أن الأمر أكثر تعقيدا مما يبدو، وأن الموضوعية والعقلانية ليسـتا كافيتين، بل وأن هناك ضرورة للنسـبية لا يمكن تجاهلهـا، إذ يذهب كـون إلى أنه، ومع التطورات المتسـارعة في العلم وفلسـفته في نهايات القـرن العشرين، حدثت تحولات علمية كبيرة تثبت خطأ ما هو متبع بشـأن إنتاج المعرفة، ومع بدايات القرن الحادي والعشرين كانت ثورة الكوانتم وثورة البيولوجيا ودخول العالم في عصر جديد تنتفي فيه الموضوعية العلمية المعهودة والعقلانية النقدية البوبرية. وتصبح النسبية هي سمة العلم الأولى فكان لزاما على العلماء تفكيك نظرية المعرفة السائدة ومحاولة تقديـم صور جديدة تتلاءم مع تطـورات العلم الحديث، فنجد « التطورات التي شـهدها العلم في السـنوات القليلة الماضية تحتم على العلماء وفلاسفة العلم أن يضعوا عقلانية علمية جديدة .... تكون العقلانية العلمية الجديدة عقلانية تؤكد الطابع الإنساني في العلم»[2]

أضحـت التعدديـة هـي المطلوبة، والموضوعيـة العلمية تعـبر عن تداخل بـين الذاتي والموضوعـي، ويعد بول فيرآبند فيلسـوف العلـم المعاصر من أول المسـاهمين بأطروحات نقدية مسـتجدة لنظرية المعرفة وكذلك من أكثر المدعمين للنظرية النسوية فيما بعد، فقد قدم فيرآبند العديد من الأطروحات المسـتجدة في نظرية المعرفة مهدت الطريق للدعاوى النسوية والنسبوية في المعرفة، إذ «تكمن أهمية فيلسوف العلم المعاصر بول فيرآبند في كونه قـدم نظرية في المعرفة لا تعتمد على منهج واحد ثابت بل تعتمد على التعددية المنهجية»[3]. كـما أثبت فيرآبند كون الموضوعية العلمية خرافة لا سـبيل إلى تحقيقهـا، بل واتهم العلماء والفلاسـفة الذين يصرون عليها بأنهم يقيدون مسـيرة العقل ويحدون من القدرات العقلية

(1) نقلا عن ستيف فولر، كون ضد بوبر: الصراع من أجل روح العلم، ترجمة نجيب الحصادي، المركز القومي للترجمة، العدد 2034، الطبعة الأولى، 2012، القاهرة. صـ 131.

(2) خالد قطب، أنسنة العلم، مرجع سابق، صـ 14.

(3) المرجع السابق، صـ 19.

للبشر بفرضهم منهجا واحدا ثابتا للعلم والمعرفة، ويعتبر عملهم نوع من أنواع الاستعمار وهو استعمار الفكر وتقيده، لذلك قدم فيرآبند مفهوم النسبوية كحل بديل ولكنه لم يعترف به بشكل مباشر كونه لا يريد أن ينتقد واضعي النظريات وراسمي الطرق المعدة قبلا للمعرفة فيأتي هو أيضا ويفعل ذلك، وإنما يقول لنا فيرآبند: «عندما أتحدث عن النظريات فأنا أعني أنها تتضمن الأساطير والأفكار السياسية، والمذاهب الدينية، كما أرى أن تعبير «وجهة نظر»، ينطبق على الأقل على بعض جوانب ما هو موجود.»[1]

ظهرت النسبوية إذن كعنصر رئيس جديد وانبثاق لآفاق واعدة في البراديم النسوي المستحدث - يحاول أن يخفف من أثر العقلانية النقدية المتداولة ويحاول أن يكون أكثر عصرية في تناول موضوعات المعرفة بشكل يتناسب مع التطور العلمي المعاصر.

أولا: تحديد المصطلح

نسبوية أم نسبية:

لم يكد يطل القرن العشرين برأسه على التاريخ الإنساني حتى نشر شاب يعمل بمكتب تسجيل براءات الاختراع في مدينة برن ويدعى «ألبرت أينشتاين»، بحثا ضمن بحوث خمسة في الفيزياء، وذلك في العام 1905م[2]. كان هذا البحث هو الأساس الأول المتين لما سمي بعد ذلك بنظرية النسبية. وكانت هذه النظرية تعالج بالأساس مشكلات فلسفية في فيزياء نيوتن التي رانت على العقل العلمي لأكثر من قرنين من الزمان قبل أينشتاين، مشكلات من قبيل الزمان والفضاء المطلقين، والكتلة الثابتة.

وبعد مرور سنوات عشر عمل فيها هذا الشاب على تعميم نظريته لتشمل جوانب أخرى من فيزياء نيوتن، أذهل العالم بنسبيته العامة التي عالجت مشكلة الجاذبية وفسرت

(1) بول فيرآبند، ثلاث محاورات في المعرفة، مرجع سابق، صـ 22.

(2) أينشتاين: حياته وعالمه، والتر إيزاكسون، سلسلة الثقافة العلمية، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013م.

ظواهـر وحركات لكواكب وقفت أمامها نظرية نيوتن موقف الحائر العاجز. كما أضفت على قانون الجاذبية معنًى فيزيائيا بعد أن كانت الجاذبية مجرد وصفا رياضيا محضا في فيزياء نيوتن[1].

وترافـق في أثناء ذلك صحوة منهجية في العلوم الاجتماعيـة، وأخذت الأنثروبولوجيا، التي رافقت في تطورها حركات المد الاستعماري بغية السيطرة الثقافية على الشعوب، أخذت تحتـل مكانا مكينا بين هذه العلوم الاجتماعية، وكان أن ثارت في لحظة من لحظات تطورها عـلى نفسـها ومناهجها القائم عـلى الحكم والتقييم لثقافـات الشـعوب اللاأوربية ووضعها في درجـات متفاوتة على سـلم الرقي الحضاري الـذي تعتلي أوربا أعلى درجاتـه[2]، ومن ثم أساسـا ومعيارا للحكم والتقييم. وأثمرت هذه الثورة الأنثروبولوجية على نفسها منهجا يقوم على الإقرار بالنسـبية الثقافية، ومن ثم دراسة المجتمعات في حدود معاييرها الخاصة بها وفي إطار من سياقاتها التاريخية والحضارية والجغرافية... إلخ.

ومنذ هذه الآونة، أضحى مصطلح «النسبية» هو موضة العصر؛ إذ تعدت النسبية حدود نظرية أينشـتاين في ميادين الفيزياء والرياضيات، ووصلت إلى ميادين العلوم الاجتماعية، وأخـذت هـذه الأخيرة تأخذ بحظها من هـذا المصطلح كلما أمكنها ذلـك، حتى عُد معلما رئيسا من معالم العلوم الاجتماعية.

بيـد أننا نعرف ما يمكن أن يثيره تداخل المصطلحات في الذهن من خلط لا يسـتقيم به الفهم ولا يصح بعده اتفاق علمي أو أكاديمي، فكان لزاما علينا أن نميز النسبية التي تقصدها العلوم الاجتماعية من النسـبية المقصودة في الفيزياء، لاسـيما إذا كنا كثيرا ما نستخدم هذه الأخيرة كثيرا عند الحديث عن فلسفة نظرية النسبية في فلسفة العلم. ففلسفة العلم تخوض أبحاثا في كلا النسبيتين: نسبية أينشتاين في الفيزياء ونسبية الثقافات في العلوم الاجتماعية.

(1) انظر ألبرت أينشتين، النسبية: النظرية الخاصة والعامة، ترجمة رمسيس شحاتة، مراجعة محمد مرسي، تقديم عطية عاشور، المركز القومي للترجمة، مصر، العدد 2828، 2009م.

(2) انظر قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، د. حسين فهيم، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 98، فبراير 1986.

والشيء الجوهري الذي ينبغي لنا معرفته هنا لكي نستطيع وضع الاصطلاح المناسب لمسألة النسبية في العلوم الاجتماعية، هو أن «النسبية» «Relativity» حين نطلقها على نظرية أينشتاين فإننا نطلقها على نظرية بعينها محددة المعالم والأركان ومتميزة كل التميز في الفيزياء، ليس ذلك فحسب، وإنما هذه النظرية إنما هي تنظير عن «أشياء» ووصف وتفسير لهذه الأشياء. أما في العلوم الاجتماعية فعندما نبحث عن نظرية بهذا الاسم لتحقق ذات المغزى فلا نظفر من بحثنا بشيء، وإنما غاية ما هنالك هو اتجاه عام تنضوي تحته نظريات وتوجهات شتى ولكل منها أغراض مختلفة. وبخلاف النظرية التي هي نظرية عن «أشياء» جامدة أو حيوية، فإن المذهب هو توجه لكائنات عاقلة، ومن هنا صح أن نقول على المذهب أنه المذهب النسبوي أو التوجه النسبوي، وليس المذهب النسبي، وكان مصطلح «النسبوية» «Relativism» هو التعبير الأدق لما نريده هنا. فالنسبية إذن هي تعبير عن أشياء وأمور وموضوعات، أما النسبوية فهي تعبير عن توجهات وأيديولوجيات وتيارات فكرية.

كما يمكننا أيضا تعريفها من خلال مبدأ التضاد، فقد نعلم أن إقران الأضداد يظهر الفكرة ويبرز المعنى ويحدد المعالم. والمصطلح المقابل للنسبوية هو «المطلقية» Absolutism وهي تعرف بأنها (مذهب) في نظرية المعرفة يزعم اقتناص الحقيقة المطلقة والكاملة، وتعرفها موسوعة ستانفورد للفلسفة بأنها «المطلقية: هي وجهة النظر التي ترى أنه على الأقل في مجال معين يوجد مجموعة من الحقائق والقيم تنطبق في كل زمان ومكان والأطر الاجتماعية كذلك، فهي عالمية وليست مقيدة بالظروف التاريخية والاجتماعية. والمطلقية في الغالب تستخدم باعتبارها فكرة التباين الرئيسة للنسبوية»[1] مما يعني افتراض وجود الأسس والمعايير الثابتة والتي تناقضها النسبوية.

(1) Maria Baghramian, J. Adam Carter, Relativism, The Stanford Encyclopedia of Philosophy, published Fri Sep 11, 2015.
https://plato.stanford.edu/entries/relativism/#RelCon

وتظهر أول عبارة واضحة وصريحة عن النسبية في قول أفلاطون: «تظهر الأشياء لي، كما توجد بالنسبة لي، وتظهر الأشياء للآخرين كما توجد بالنسبة لهم»[1]. فالنسبية تقرر أنه لا توجد هناك حقيقة موضوعية، فما أراه هو الحقيقة بالنسبة لي، وما تراه هو الحقيقة بالنسبة لك، فلا يوجد خطأ لدى أي منا. وربما يتشابه أيضا مع مبدأ بروتاجوراس مؤسس حركة السفسطائيين وواضع مبدأ «الإنسان مقياس كل شيء»، لذلك يمكننا أن نستنتج أيضا أن النسبوية ليست بالمذهب الجديد تمامًا، وإنما كانت لها إرهاصات في بدايات الفلسفة عند اليونان.

النسبوية إذن هي وضع فلسفي وتوجه فكري يرى أن معيار الحقيقة والزيف والصواب والخطأ والأحكام الأخلاقية عموما ترجع إلى الإطار المجتمعي (أو أي إطار معين ومحدد) الذي ظهرت فيه، وهي نسبية، أي الحقيقة، بحيث لا يمكنني رفضها أو انتقادها كونها تتعارض مع قيمي ومعتقداتي الشخصية التي بالفعل تنتمي إلى إطار خاص بي، وعليّ أنا كفرد تقبلها واحترامها. ومن هنا يمكننا القول بأنه لا يوجد صحيح على الإطلاق، بل إن الإطلاق نفسه مرفوض. ففي الأمور والأوضاع النسبية ليس هناك من يستطيع ادعاء أن منهجه هو المنهج الصحيح الوحيد، لذا يجب ألا نقهر أحدا على قبول منهج ما أو طريقة معينة، فمنهج الإرساليات التبشيرية والعسكرية انتهى. وربما هذا يبرر لنا أيضا ارتباط النسبوية بالنزعة ضد الاستعمارية التي ترفض الاستعمار بكل صوره وتدعو إلى احترام الآخر المحلي.

وهنا يمكننا أن نربط هذا بما جاءت به الحركات الفكرية الجديدة مثل ما بعد الحداثة والتفكيكية وما بعدها، اتخذت الإبستمولوجيا النسوية من النسبوية منهجا من خلال إعطاء الأهمية لموقع العارف (هذه الأهمية لموقع العارف ودورها الحاسم في صياغة القوانين والتصورات عن العالم، هي ما بلورت نسبية أينشتاين الرياضية أيضا) ودور الجنوسة في عملية إنتاج المعرفة والأهمية الكبيرة لدور الذاتية. كما أكدت على النسبوية الثقافية ورفضت الإطلاقية والحقائق الثابتة وكل ما ترفضه النسبوية، ويتبين لنا أيضا أن النسبوية

(1) محاورة ثياتيتوس لأفلاطون أو عن العلم، ترجمة أميرة حلمي مطر، دار غريب، القاهرة،2000.

مطلوبة لبقاء الإبستمولوجيا النسوية نفسها، لذلك عملت النسويات على دعم النسبوية في المناقشات العلمية والأكاديمية ودعموا فكرة كونها ضرورة للعصر. ناهيك عن المناقشات حول النسبوية في كل التخصصات الفلسفية تقريبا، فنجدها في الأخلاق والإبستمولوجيا والدين والسياسة وحتى الأنطولوجيا ونظريات المعنى والمنطق.

ثانيا: مفهوم النسبوية

بدأت المناقشات بخصوص مفهوم النسبوية في العلم مع انهيار الوضعية المنطقية والنزعة الأسيسة[1] في صورتها الكلاسيكية، فجاءت كمقابل للمطلقية، ومع كتاب بنية الثورات العلمية لتوماس كون Thomas Kuhn's The Structure of Scientific Revolutions (1962)، وظهور أفكار خاصة بالتقدم في العلوم والتطور العلمي، وكيف أن يكون العلماء معتقدين في رسوخ نظرية ما ثم تحدث ثورة معرفية تفقدهم عقيدتهم العلمية القديمة ثم يتحولون عنها إلى اعتقاد علمي آخر ربما رأوه من قبل غريبا أو حتى شاذا، ومن ثم تكتسب مشروعية وقبول الوسط العلمي. وعُد هذا دليل على نسبوية العلوم وكيف أن نتائج العلم تتغير كثيرًا وما هو صحيح اليوم ويعتقد به العلماء ربما غدا يكون غير ذلك، دعم فيرآبند (Paul Feyerabend 1924 - 1994) هذه الجزئية في نقدة للموضوعية العلمية التي يدعي أصحابها بثبوت الحقائق وعد قابليتها للتغير إلا أن فيرآبند ينفي ذلك ويعتبر أن العلم أساسا يقوم على الجهود الفوضوية[2] «يعد العلم من الجهود الفوضوية الأساسية: وتعتبر الفوضوية النظرية، أكثر إنسانية، وأكثر قدرة على تشجيع التقدم، مقارنة بالبدائل ذات القوانين والنظم»[3] وأوضح كيف أن للنظرية المنتجة في مجتمع علمي وثقافة ما تختلف عن أخرى أنتجتها ثقافة مغايرة، وكلاهما صحيح وللحكم في صحتها يجب العودة

(1) الأسيسة هي وجود أسس وقواعد ثابتة تقوم عليها المعرفة، وهذه الأسس هي التي تضمن صدقها.

(2) ترى الدكتورة يمنى طريف الخولي والمشرفة على هذه الرسالة أن الأفضل هنا اللاسلطوية بدلا عن الفوضوية.

(3) بول فيرآبند، ضد المنهج، ترجمة وتقديم ماهر عبد القادر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2017. صـ 41.

إلى الظـروف المجتمعية الخاصة بكل منهما، وهذا ما اعتبره فيما بعد بمصطلح اللامقايسـة، ورغم وصف أفكاره بالفوضوية والعبث إلا أنه من المدعمين وبقوة للنسبوية؛ فقد ساهمت أعماله في الترسـيخ لفكرة النسبوية، كما كان لها فضلا كبيرا على الإبستمولوجيا النسوية- والتي بلغت ذروتها في مفهوم اللامقايسة الذي صاغه فيرآبند.

«**اللامقايسة**» Incommensurability:

للامقايسـة من مدعمات النسبوية، وربما يمكننا القول بأن النسبوية جاءت كاستجابة للامقايسـة التي ظهـرت على أيدي توماس كـون وبول فيرآبند، أما عـن المصطلح فتعرفه موسـوعة ستانفورد للفلسـفة على أنه: «يعني مصطلح اللامقايسـة أنه لا يوجد مقياس عام مشـترك، ويعـود في أصولـه إلى الرياضيات اليونانيـة القديمة، حيث كان يعـني عدم وجود مقياس مشترك بين الأحجام»[1]

كـما يمكن ترجمتها ب «اللامقارنيـة»، أي عدم القابلية للقياس وفق الوحدات نفسـها كما ترجمها نجيب الحصادي، وعرفها بـــ «اللامقارنية هي مصطلح كون للعلاقة القائمة بين أيه برادايمين، يؤكد تصنيفاتها المختلفة جذريًا للظواهر المشـتركة. عند كون، المؤرخون والعلماء الثوريون وحدهم الذين يتقنون اللامقارنية، التي تشبه قدرة المتحدث بلغتين على اسـتيعاب لغتين متمايزتين.»[2]. وهـو ما عنى به كون صعوبة القياس بـين الأنماط المعرفية المختلفـة، بمعـنى أن الأنماط المعرفية المختلفـة أو النظريات العلمية في النماذج الإرشـادية (البرادايمات) المختلفة لا يمكن الحكم عليها بالمقاييس نفسها.

ولكـن أول من اسـتخدم المصطلح بقوة ووضوح كان بول فيرآبنـد في نقده للتجريبية الصارمـة والمنهج التجريبي، ووصف مـدى افتقاره للعلاقات المنطقيـة المقننة بين مفاهيم

(1) Eric Oberheim, Paul Hoyningen - Huene, The Incommensurability of Scientific Theories, The Stanford Encyclopedia of Philosophy, First published Wed Feb 25, 2009; substantive revision Tue Mar 5, 2013.

http://plato.stanford.edu/entries/incommensurability/#RevParThoKuhInc

(2) ستيف فولر، كون ضد بوبر: الصراع من أجل روح العلم، مرجع سابق. صـ 168.

النظريات الأساسية، وفي نقده لنماذج التجريبيين المنطقية وتفسيرها للحد منها. ويقول عنه فايرآبند: «ويعتبر تصور اللامقايسة هبة مني للفلاسفة والسوسيولوجيين»[1] رغم أنه لا يفضل أن يكون من واضعي المفاهيم والنظريات.

يحلل فيرآبند مصطلح اللامقايسة بأنها خاصية للتغير العلمي لدحض العقلانية العلمية التي يتم استخدامها كثيرا لاستعباد الناس والتحكم في أفكارهم وتشويه معرفتهم بآراء سلطوية لمنفعة ما من ورائها وليست للحقيقة كما يدعون، لذلك تعد اللامقايسة خاصية مهمة لكل فكر خلاق، واللامقايسة ليست في النظريات العلمية فقط وإنما أيضا تكمن في الفروق والاختلافات في ثقافات الشعوب وتنوعها التي تنجم عن اختلاف اللغة والمفاهيم وطرق الفهم وغيرها[2] مما يدعم النسبوية الثقافية التي هي منطلق دراسة الثقافات من أجل الفهم وليس إصدار الأحكام بخصوصها.

وكانت نتيجة تحليل كون وفيرآبند لمفهوم اللامقايسة أن انتهيا إلى أنه لا مقايسة بين نظريتين متنافستين بنفس المنطق، حيث تختلف كل منهما عن الأخرى في السياق اللغوي والدلالي والثقافي. ويؤدي بنا هذا في النهاية إلى أنه لا يوجد معيار واحد محدد أو لا توجد نظرية أفضل من أخرى، وإنما كل نظرية لها سياقها التاريخي والثقافي الذي شكلها، وبناء عليه تصعب المقايسة بين براديم أينشتاين وبراديم نيوتن، أو ميكانيكا الكم والنسبية. فالخطأ والصواب كقياس منطقي ليس معيارا واضحا لنستطيع إصدار الأحكام بواسطته على نظريات علمية متتالية في براديمات مختلفة.

مما سبق، أضحى واضحا بفضل مفهوم اللامقايسة مدى أهمية النسبوية في النظريات العلمية لرد البُعد الإنساني إلى هذه النظريات العلمية بعدما تم تجريفه عبر تاريخ الإبستمولوجيا المديد. وقد تعددت تعريفات النسبوية بتعدد تشابكاتها في مجلات الفلسفة المتنوعة ما بين نسبية القيم الأخلاقية والنسبية المعرفية التي تقوم على نسبية الحقيقة، وما بين نسبية ثقافية

(1) بول فيرآبند، ثلاث محاورات في المعرفة، مرجع سابق. صـ 230.
(2) المرجع السابق. صـ 228 - 231.

تقوم على نسبية المعايير الاجتماعية وغيرها، فجاءت بتعبيرات مغايرة لكل من القيم والمعايير الخاصة بالمعرفة، والجمال والأخلاق والتجارب والأحكام وحتى العالم، وتختلف باختلاف الثقافات والمعتقدات واللغة والمفاهيم، ويمكننا ضرب الأمثلة على ذلك فنجد:

- نسبية القيم الأخلاقية، تتوقف على ثقافة وفهم المجتمع، فما أراه أنا يحمل معنًا سلبيا تراه مجتمعات أخرى على النقيض من ذلك[1].
- مفهوم الحقيقية يمكن التلاعب به من خلال اللغة.[2]
- درجة الحرارة المقاسة من خلال ترمومتر نسبية وتعود إلى الجهاز المستخدم في عملية القياس والظروف المحيطة وقتها، أي نسبية الأدوات المستخدمة أيضا.

ولكن المتفق عليه في النسبوية عموما التالي:

«1- الجميع يجزم بأن الشي الواحد مثل (القيم الأخلاقية أو المعرفية أو الجمالية أو الذوقية أو المعنى) نسبي لبعض الأطر أو وجهات النظر التي ترجع إلى (الآراء الفردية أو الثقافية أو ظروف العصر أو اللغة أو المفاهيم).

2- جميع النسبويين ينكرون امتياز وجهة نظر معينة عن الأخرى»[3].

---

(1) إذا ما نظرنا إلى قيمة كقيمة «الاحتشام» مثلا، بل أحد تجليات هذه القيمة وهي الملابس والأزياء في الثقافة الهندية ومقارنتها بذات القيمة وذات التجلي في الثقافة العربية الإسلامية، نجد أن اللباس التقليدي في الثقافة الهندية هو الساري الهندي والذي يتعمد تعريه منطقة البطن، ولا مشكلة لديهم، بل على العكس من ذلك يعتبر من معالم الجمال (والجمال بمعناه المحمود لدى الثقافة وليس بمعنى الإغراء) أن تظهر المرأة بطنها، ولكن المجتمعات العربية تستهجن هذه الفكرة وترى العكس تمامًا، فهي تخدش الحياء العام. أما لو تحدثنا عن اختلاف الزمان واللحظة الحضارية الراهنة وكيف تختلف من زمن لآخر في الثقافة الواحدة فنجد مثلا: في الثقافة العربية قديما حين كانت تزدهر تجارة الرقيق كانت الإماء يمشين عاريات الصدور ولا مشكلة مع المجتمع في ذلك بل كان هو الشيء الطبيعي المعتاد، ولكن مع تغير اللحظة التاريخية أصبح ذلك مرفوضًا الآن وعلى المرأة أن تتصف بالحشمة وخاصة منطقة الصدر.

(2) واختلاف اللغة يعود إلى اختلاف المعنى والدلالة من ثقافة لأخرى، والمراوغة لبعض المصطلحات التي يصعب تحديديها بدقة.

(3) Emrys Westacott,Relativism,Internet Encyclopedia of Philosophy, Alfred University, U. S. A. http://www.iep.utm.edu/relativi/

ولذلك عرفها فيرآبند، أي النسبوية، بأنها غامضة مثلها مثل باقي المصطلحات الفلسفية الأخرى، ولكنه يستخدمها بمعنى مختلف فيقول: «إن النسبوية التي أقدمها هنا ليست عن المفاهيم، و إنما هي عن العلاقات الإنسانية، إنها تتعامل مع المشكلات التي تنشأ عن صراع الثقافات المختلفة أو الأفراد، مع العادات والأذواق المختلفة»[1] وبهذا المعنى تحديدا أرادت الفلسفة النسوية أن تكون الإبستمولوجيا النسوية نسبوية من هذا المنطلق، تحترم الرؤى والمعتقدات المختلفة وتحارب الهيمنة والسيطرة على كل المستويات سواء سيطرة ذكورية على المجال المعرفي أو سيطرة ثقافية و إمبريالية واستعمارية لدولة على أخرى.

وانطلاقا من تعريف رولان أومنيس لنظرية المعرفة على أنها «نظرية المعرفة كما أفهمها هي مخطط يهدف إلى أن يفسر لنا كيف يمكن للوعي البشري أن يعرف العالم، العالم الذي يطيع القوانين الخاصة به. وعلى هذا فالأمر مباراة بين العالم والوعي»[2] فإن كان الأمر كذلك يرتبط بوعي الإنسان، هذا الوعي الذي كان بسيطا للغاية في البداية ويمكن تحليله، وعليه وضعت نظرية المعرفة الكلاسيكية، فإن هذا الوعي الآن، ومع التقدم العلمي المهول وخصوصا نظرية الكوانتم، لم يعد سهل على الإطلاق ليتم تحديده أو التعبير عنه بشكل محدد؛ لذلك أمست النسبوية تمثل أمثل الحلول، على الأقل في اللحظة الراهنة.

اتخذت المناهج النسوية والفلسفة النسوية عموما النسبوية ذريعة ضد الأنساق المعرفية القائمة، وتم وصف المناهج النسوية بكونها مناهج نسبوية سواء من قبل الفلاسفة النسويين أو حتى الفلاسفة الغير نسويين، وكانت النقطة الأولى لهم تتمثل في أن عامل الجنوسة سوف يؤدي إلى صعوبة تحقيق الموضوعية والحيادية المطروحة في الفكر المعرفي الكلاسيكي، فهم يعودون إلى مفهوم المعرفة الكلاسيكية «والذي يفترض أن الجنس هو عامل من عوامل الشوائب الأيديولوجية التي تضعف من تمييز الحقيقة والقيمة:

(1) نقلا عن خالد قطب، أنسنة العلم، مرجع سابق، صـ 204.

(2) رولان أومنيس، فلسفة الكوانتم، فهم العلم المعاصر وتأويله، ترجمة أحمد فؤاد باشا ويمنى طريف الخولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 350، أبريل 2008، الكويت. صـ 346.

وهـو ما يهـدد تحقيق معرفة موضوعية محايدة وسـليمة عالميا»[1]. وتؤكد كـود كيف أن هذه النقطة تحديدا ترفع من سقف تطلعات النسبوية وتعدها كما تقول كود ورقة رابحة للنسوية.

ولكن للنسـبوية صور شـتى، فهنـاك النسـبوية الثقافيـةCulture Relativism وهي مرتبطة بفلسفة الحضارة وفي الرؤية الفلسفية للثقافات وعلاقاتها وتداخلاتها، وهي مرتبطة أكثر بحركة ما بعد الاسـتعمار وتعتـبر مهمة أيضا بموضوع البحث هنا. وهناك النسـبوية المعرفيـةEpistemic Relativism وهـي مصطلـح في نظرية المعرفة، أي في الإبسـتمولوجيا المحدثـة وهي الجزء الأكثر أهمية والأكـثر تعلقا بموضوع البحث، والنسـبوية الأخلاقية Moral Relativism وهـي وجهة نظر تـرى أن الأحكام الأخلاقية والاعتقادات السـائدة عن الخطأ والصواب، السـيئ والحسـن كلها أمور ترجع إلى الإطار الثقافي الذي تنشـأ فيه. والنسـبوية المفاهيمية Conceptual Relativism وهي تعني أن اختلاف تعريفات مفاهيم مثـل الموضوعيـة والوجود، تبعا لاختلاف المفاهيم من مكان لآخـر ومن زمان لآخر أيضا، وهذا الاختلاف لا يعني أن أحدهما على خطأ وإنما يعني أن التعريف له سياقه الخاص، وهذا السـياق هو المسـؤول عن تعريفه على هذا النحو. التنوع التاريخي والثقافي هو الذي يقدم لنا أشكالا مختلفة من نسبية المفاهيم، وهناك أكثر من طريقة لوصف الموجودات، فالفكر السـائد منذ كانط هو أن العقل البشري ليس قوة سـلبية لتمثيل واقع مستقل، وإنما له دور فعال في تشكيل الواقع وبنائه، وتضيف النسبوية المفاهيمية، وتطويعا واستخداما لما ذهب إليـه كانط: «إن البشر قد يبنون الواقع بطرق مختلفة، ويرجع ذلك إلى الاختلافات في اللغة والثقافة بينهم»[2] وكل ما يهمنا هنا هو النسـبوية الثقافية والنسبوية المعرفية بشكل كبير، أو على الأقل الإطار الخاص بفلسفة لورين.

(1) Kathrin Hönig. Relativism or Anti - Anti - Relativism? Epistemological and Rhetorical Moves in Feminist Epistemology and Philosophy of Science. European Journal of Women's Studies, SAGE Publications (UK and US), 2005, 12 (4), pp.407 - 419.

(2) Maria Baghramian, J. Adam Carter, Relativism, The Stanford Encyclopedia of Philosophy, First published Fri Sep 11, 2015.
https://plato.stanford.edu/entries/relativism/#RelCon

ومن خلال كتابات لورين يتضح لنا أنها تقوم على الدوام بالربط بين النسبوية المعرفية والنسبوية الثقافية، فتستخدم مصطلح Relativism بكلا المعنين السابقين، بل وتعتبر أن النسبوية الثقافية هي المنطلق إلى النسبوية المعرفية، أي أن النسبوية المعرفية نتيجة منطقية مترتبة على النسبوية الثقافية. وهي تربط أيضا النسبوية بشكل عام بفلسفة ما بعد الحداثة وما بعد الاستعمار والإمبريالية الثقافية وانهيار المطلقية والحقيقة الواحدة التي كانت في عصر التنوير وفي الفلسفة الحديثة برمتها.

لذلك يمكننا أن نحدد موضوعنا هنا على أن المقصود هو النسبوية المعرفية، تلك الخاصة بعملية إنتاج المعرفة، وهي أن المعرفة نسبية، والتي يعرفها مراد وهبة في معجمه الفلسفي كالتالي: نسبية المعرفة Relativity Of Knowledge على أنها «(1) عند هاملتون هذه النسبية من ثلاثة وجوه: فإنها تقوم في نسبة بين حدين يجمع بينهما في الحكم، ونسبة بين ذات عارفة وموضوع معروف يحد أحدهما الآخر، ونسبة بين جوهر وعرض فيدرك الجوهر، فكل جوهر مدرك إذن نسبي، ولهذا فإن المطلق لا مدرك. (2) عند كانط هذه النسبية ترجع إلى استحالة موضوعات الميتافيزيقا: الحرية، والخلود والله. (3) عند سبنسر هذه التسمية تستند إلى القول بأن أي فكرة يستحيل إدراكها إلا عندما نعارضها بفكرة سابقة مختلفة عنها أو شبيهة بها، وعلى ذلك يستحيل إدراك المطلق لأنه لا يوجد شيء خارج المطلق حتى يختلف عنه أو يشبهه.»[1]

ثالثا: النسوية والنسبوية

في كتابها «الأماكن الخفية: مقالات عن مواقع التمايز الجنسي»، وبالتحديد في المقالة المعنونة بـ: «هل يجب أن تكون النسوية نسبوية رغم كل شيء؟»، تحلل لورين كود مفهوم النسبوية وعلاقته بالنسوية وطريقة المقاربة له من قبل النسويات. فتبدأ كود بتسليط الضوء على ذلك المناخ المشحون ريبة تجاه هذا المفهوم، ذلك الذي تعمل فيه النسويات؛

(1) مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص733.

حيث تعد النسبوية سبة في جبين من يتبناها. فمن المسلم به أن المناخ الفلسفي العام لا يتعامل مع نظرية المعرفة إلا كونها تلتزم بمقاربة معايير معينة تم اختبارها من قبل الجماعة العلمية، فهم يركزون عملهم على تقوية ودعم الشروط والمعايير اللازمة لإنتاج المعرفة ودحض آراء الشكاك حيالها، لذلك على النسويات الإبستمولوجيات أن يبتعدن تمامًا عن النسبوية إن كن يردن أن يخضن في مجال الإبستمولوجيا؛ وإلا فسوف تكون دعواهم مرفوضة منذ البداية لإصابتها بجرثومة النسبوية، تلك التي يفزع منها التوجه الفلسفي الرسمي في إنتاج المعرفة.

وهنا تقول لورين: «خطابيًا، وباستمرار، يرسخ مجال الإبستمولوجيا السائدة بأنه يجب على الممارسين الذين يرغبون في دخول شرعي مقبول في المجال المعرفي نبذ كل النزعات النسبية»[1]. وتخص لورين به ما بعد الوضعية في الفلسفة الأنجلو أمريكية. ولكن في نفس الوقت، وبحسب لورين، سوف تقع النسوية في تناقض فج؛ لأن الدعاوى النسوية تقوم على الاهتمام بذات العارف وموقعه وظروفه، مما يعني نسبية المعرفة، ومن ثم تقع النسوية في «فخ النسبوية» حتى ولو لم ترد النسويات ذلك. ولكن تقترح كود على النسويات تجاهل كل هذه الاتهامات الموجهة للنسبوية والخروج والإعلان عن نسبويتهم.[2]

ولكن نظرا لما فرضه الاتجاه السائد في الإبستمولوجيا، راحت الإبستمولوجيات النسويات، وفي إشارة شبه طقسية، تؤكدن على أنهن بعيدات كل البعد عن النسبوية، وأن الاهتمامات بالذاتية والموقعية لا تتشابك مع النسبوية المعرفية في أية نقاط، ولكن فقط بها شيء من النسبوية من الناحية الاجتماعية والثقافية والتاريخية. وهنا تدين دونا هاراوي النسبوية وتقول بأنها طريقة حيث لا توجد في أي مكان بينما تدعي كونك في كل مكان بشكل متساوي. كما تؤكد ساندرا هاردنج أن إبستمولوجيات الموقف النسوي تدعوا إلى الاعتراف بنسبية تاريخية أو اجتماعية أو ثقافية ولكن ليس من أجل نسبية إحكامية أو نسبية معرفية. وكذلك نجد أيضا هيلين لونجينو تحذر من أن التخفيف

(1) Code. L. Rhetorical Spaces: Essays on (Gendered) Locations. New York: Routledge, 1995, P185.
(2) Ibid.p185 - P186.

من الحدود التجريبية/ النظرية لا يحتاج إلى ... ويجب ألا يؤدي بنا إلى نسبوية جامحة. كما نجد لين هانكنسون نيلسون تقاوم النسبوية بدعوى أنه يمكننا وينبغي علينا أن نميز بين المعتقدات والنظريات المبررة وبين النظريات غير المبررة. وكل ذلك مما يؤكد ضمنا رفض النسبوية لأنها لا تنتمي إلى النوع الذي يمكن تبريره»[1]. لذلك عملت كود على توضيح أسباب نبذ النسبوية ومحاولة إيجاد طرق للمواجهة وكذلك محاولة الإيحاء للإبستمولوجيات النسويات بأن النسبوية خير لهن، ولكن مع التعديل والمعالجة للمفهوم الفضفاض الشائع عن النسبوية، والذي حمل برواسب تاريخ طويل ومضلل.

وتحلل كود كيف اكتسبت النسبوية سمعة سيئة لدى فلاسفة الاتجاه السائد في الإبستمولوجيا، وكعادتها تعود باحثةً ومنقبةً في الجذور فترجع إلى البدايات عند الإغريق، وتحديدا مع بروتاجوراس ومبدأ «الإنسان مقياس كل شيء»، وبالطبع كانت فوضى عارمة ترتبت على ذلك المبدأ مما وضع الفكر الإغريقي آنذاك في ورطة حقيقية أدت إلى انهماك الإبستمولوجيين في تحديد شروط صارمة للمعرفة ورفض ما يناقضها. واستمر الوضع الذي جعل الإبستمولوجيين المعاصرين الآن يشددون على رفض النسبوية ويؤكدون أنها ليست بالمبدأ الجيد أو القابل للطرح على طاولة المناقشة لما يخلفه من فوضى عارمة ورفع شعار: «كل شيء يصلح»، فلا نستطيع بالتالي التمييز بين دعاوى المعرفة المختلفة ولا حتى التمييز بين ما يصلح أن يكون معرفة أو لا مادام الإنسان وحده وذاته المفردة هما المعيار والحكم والفيصل.

لذلك مثلت النسبوية في الفكر الفلسفي منذ ذلك الوقت وحتى القرن العشرين - الفوضوية، إذ تؤدي إلى معرفة فوضوية لا يمكن بها أو عليها أو عنها التعبير بشكل عالمي؛ ولذلك اتجهوا إلى الموضوعية والعقلانية والحيادية كذريعة لما خلفته النسبوية من فوضى. وانطلاقا من هنا تكون الأسباب الواضحة لرفض النسبوية إنما تعود بالأساس إلى الافتراضات والمحظورات التي حُمّلت مفهوم النسبوية، والتي يقيمها التيار السائد الرسمي،

(1) Ibid, P186.

وليس على تحليل المفهوم[1] و إعادة فحصه و إعمال العقل والمنطق فيه، فتقول كود: «أعتقد أن الأسباب التي تجعل من تهديد النسبوية يبدو جديا، هو استنتاجها من الافتراضات التأديبية والتحظيرية التي تبناها التيار السائد أواخر القرن العشرين، وكذلك من عواقب النسبوية في الواقع العملي وخاصة العارفين المتموضعين (أي ما يتعلق بموقع العارفين)، وذلك أكثر مما هي استنباطا من الإملاءات الطبيعية للعقل والمنطق المدققين»[2] ومن هنا فإن هذه الافتراضات والمحظورات يتولد عنها الممارسات الإمبريالية مما يجعل إعادة النظر في النسبوية أمرا بالغ الأهمية و يستحق العناء.

وفيما يخص المذاهب التجريبية والوضعية ونظريات المعرفة العقلانية، الكلاسيكية منها والأكثر عصرانية، عملت جميعًا (عن غير قصد ربما) على تشويه سمعة المرأة، إلى جانب معرفة البشر المحكوم عليهم بأنهم غير مؤهلين وكذلك المعرفة التي ينتجها الناس من الأعراق والألوان، والثقافات المختلفة والتي تختلف عن المعرفة التي ينتجها صانعي المعرفة المعترف بهم.

ومن هنا تقريبا، فإن مفهوم المعرفة قد تم تحديده من قبل المتخصصين ليغدو معبرا فقط عن المعرفة التي ينتجها الرجل الأبيض المتعلم والمثقف وهو نفسه ذلك الرجل الذي يشغل مواقع السلطة التي تمنحه موقع إصدار القرارات والحكم على ما يعد معرفة وما لا يعد معرفة. «وبما أن نظرية المعرفة، كما أفهمها، يجب أن تهدف إلى إيضاح وتفسير الممارسة لتحديد كيف يمكن للناس أن يعرفوا و يتصرفوا ضمن الهياكل والمؤسسات الثقافية والوضعية والاجتماعية الخاصة التي يعيشونها، وأن يدرجوا ذلك الفهم لمنطقهم الخاص - فإن ما يهم هو التأثير العملي لأي مشروع نظري، وانفتاحه على التعديل عندما تكشف

(1) ذلك التحليل للمفاهيم هو ما تحفل وتحتفي به تلك الفلسفة التحليلية أو منهج التحليل اللغوي، ولكن هذا المنهج التحليلي لم تعمله هذه الفلسفة في هذا المفهوم، مفهوم النسبوية... وهذا ما قامت به لوين كود عوضا عنهم.

(2) Code. L. Rhetorical Spaces: Essays on (Gendered) Locations. P190.

هذه الممارسة عن نواقصه القصيرة»[1]. ولذلك يتضح لنا كيف أن مفهوم النسبوية السائد يرسم لنا صورة فوضوية للمعرفة هي سبب الرفض والاستبعاد المجحف، ولكن النسوية في حاجة إلى النسبوية من أجل تأكيد أفكارها و إعادة الاعتبار إلى الخبرة الفردية والدور المعرفي للمهمشين؛ لذلك عليهن تحديد مفهوم جديد للنسبوية يتلافى الانتقادات السابقة و يدعم أفكارهن.

فلقد قدمت النسويات بالفعل تحليلا مقنعا لنقد الثنائيات[2] مثل العقل/العاطفة، الحقيقة/القيمة، الموضوعية/ الذاتية... إلخ، كما فسرن لماذا يتم استحسان الجزء الأول دائما من الثنائية مثل تفضيل العقل على العاطفة أو الحقيقة على القيمة أو الموضوعية على الذاتية، فتقول كود: «لقد سعت منظّرات النسوية، بشكل مختلف، إلى التخلّص من هذه التعارضات، و إعادة تقييم شروطها، وطرحها على أنها جدليات بدلاً من كونها انقسامات صارمة، أو للتفاوض على مسار يتجنّب الانحياز الشديد لأي من الجانبين»[3]. ولكن تحاجج كود أنه حتى الإبستمولوجيات النسويات اللائي استطعن كشف التحيز الذكوري الكامن في موضوع الثنائيات و إعادة بناء المعرفة بشكل جديد بدلا عن التناقضات الموجودة في الثنائيات المطروحة، هن أنفسهن لم يستطعن الخروج عن مفهوم النسبوية الضيق المتداول، وانسقن في عرض للنسبوية في إطار من ثنائية أخرى كونها معارضة للعقلانية والواقعية، وبالتالي لن يقبل أحد أن يوصف بكونه لا عقلاني ولا واقعي و يعظم فقط من شأن الذاتية؛ لذلك فعمل النسويات سوف ينحصر في البداية على إخراج النسبوية من تلك الثنائية التي تجعلها تبدو لا عقلانية وذاتية ومناهضة للواقعية، والأفضل أن تتخذ النسوية من النسبوية منهجا لها لفضّ الثنائيات ورفض العالمية في التفكير وفكرة صناعة

(1) Ibid.

(2) منطق الثنائيات المتعارضة في التفكير هو منطق مجحف ولا يؤدي إلى شيء في النهاية، بل ويقوم بحصر الخيارات المتاحة في حياتنا المتنوعة ما بين الشيء ونقيضه فقط، وتعتقد الباحثة أن التخلي عن هذا المنطق في التفكير سوف يفتح المجال المعرفي للتنوع والتعدد والرؤية الشاملة التي تبتغيها النظرية النسوية والتي تصب في النهاية لصالح الإنسانية عموما.

(3) Code. L. Rhetorical Spaces: Essays on (Gendered) Locations, P191.

معرفة صالحة لجميع البشر من مجموعة من العلماء يعتقدون أنهم وحدهم المتصفين بالأهلية لإنتاج المعرفة للآخرين وفرضها عليهم كونهم الأنضج عقلا والأميز فكرا، ومن ثم تعتبر معرفتهم عالمية وصادقة وحقيقية أيضا، لذلك فالنسبوية هي الخيار الأفضل للنسوية حتى لا تصبح جزءا من منظومة القمع[1].

وتبين لورين الخطة التي يمكن للنسوية وضعها من أجل إعادة بناء مفهوم النسبوية والاستفادة من مدلولاته التحررية في تحسين وضع النساء، فتقول: «افتراضي هنا في أن تتخذ النسوية خطوة جريئة في تبني إعادة هيكلة مفهوم النسبوية والاستفادة من قدرته التحولية والتحريرية والتي يمكن أن تكون أيضا سياقية وواقعية ومدركة لموقعية كل موقف معرفي»[2]. وتحاول كود من خلال تحليلاتها فض النزاع بين المطلقية والعالمية من ناحية، والنسبوية من ناحية أخرى، فتقول مثلا: «يمكن للحقيقة العالمية والنسبوية الامتثال للواقع في النهاية والاحتكام إليه ومن ثم فض النزاع. فمثلا، يفترض عالميا أن هناك حقيقة ثابتة، يمكن للبشر أن يكتسبوا فيها معرفة أفضل وأحسن، حتى يتحقق القرب من الكمال، وأن الحقائق التي تم وضعها الآن ستكون صحيحة في كل الأوقات»[3] في حين ترى النسبية أن هناك رؤى متعددة ومختلفة للواقع ليس بالضرورة أن تكون إحداها خاطئة ولكن متعددة ومتنوعه الجوانب، كما لا يهم هنا الاستغناء تمامًا عن التفسيرات القديمة بأخرى جديدة؛ لأنها ببساطة تمثل تفسيرا مختلفا مرتبطا بظروف أخرى مختلفة أنتجته وهو يمثل جزءا من الحقيقة فعلا، ومما يدعم هذا أننا «نجد في أواخر القرن العشرين تجدد الاهتمام بنظرية الألوان لجوته[4]، وظهور رؤى جديدة في المعرفة الطبية العلمية لإدراج الوخز

(1) Ibid.P193 - P194.

(2) Ibid.P195.

(3) Ibid.P198.

(4) يوهان فولفغانغ فون غوته Goethe، هو كاتب وعالم ألماني، قدم جوته بحثا من 1400 صفحة يتناول فيه موضوع طبيعة الألوان والأطياف و إدراك الإنسان لها، وكذلك قدم تحليلا لانكسار الضوء وتكيف العين مع الظلام. وقد تعارضت آراء جوته مع آراء نيوتن حول الألوان؛ فقد نظر نيوتن، والفيزيائيين على دربه، للون كمحض مشكلة فيزيائية باعتباره عبارة عن جسيمات أو موجات ضوئية ذات تردد محدد، وكل تردد=

= يعطي لونا بعينه، ومن ثم يدخل إلى أعيننا، وما على عقولنا سوى وصف هذا التردد في صورة «لون». وفي المقابل من هذه النظرة، يرى جوته أن أحاسيس اللون التي تصل إلى أدمغتنا إنما تتشكل بدورها من خلال طبيعة إدراكنا، من خلال آليات الرؤية البشرية والطريقة التي تعالج بها أدمغتنا المعلومات.

وسعى جوته في هذه النظرية إلى اشتقاق قوانين هارمونية الألوان، وكذلك الكشف عن الطرق الفسيولوجية في وصف الألوان والظواهر البصرية الشخصية بشكل عام. والنتيجة النهائية التي ينتهي إليها جوته في بحثه ليست مجرد أن ما نراه من الألوان إنما هو ليس الألوان في ذاتها وإنما هي إجراءات ومعالجات الدماغ والجهاز البصري عليها وحسب، فقد تكون هذه النتيجة قريبة من النظرة المتعمقة بعض الشيء، وإنما يصل بنا إلى أن هذه المعالجات تأتي لنا بألوان غير ما يفترض أنها كائنة في الواقع. فعنده أن الإحساس بـ «الألوان المكملة» لا ينشأ من مجرد تصرفات على أعيننا، وإنما هو إلى ذلك - وبشكل ملموس وفعال - من تصرفات جهازنا البصري.

والمقصود بالألوان المكملة هي تلك الناتجة عن مزج لون أولي بآخر (ثانوي) مشتق من اللونين الآخرين المتبقيين، (أي أن هذا المشتق هو لون ثانوي ناتج عن لونين آخرين لا يكون اللون الأولي الداخل في عملية المزج معه أحد هذين اللونين؛ إذ أن نسب المزج هنا لها الدور الحاسم في نتاج المزج). وعند القيام بهذا المزج بين هذا اللون الأولي واللون الثانوي المكمل له، ينتج إحدى الألوان الحيادية الآتية: الأبيض، والأسود، والرمادي الفاتح. وما يريده جوته هنا هو أن هذا اللون الحيادي الناتج إنما هو ما يتراءى لأعيننا، ولكن الواقع شيء آخر.

See, Goethe's Color Theory,Color Vision And Art, webexhibits.
http://www.webexhibits.org/colorart/ch.html

وبحث جوته عن الألوان :

Johann Wolfgang von Goethe, Theory of Colours (Dover Fine Art, History of Art), Charles L. Eastlake (Translator), Dover Publications, October 6, 2006.

ونحن هنا إنما أولينا اهتماما لمثال نظرية الألوان عند جوته الذي ساقته لورين من بين أمثلة عدة؛ هذا الاهتمام لأننا نرى في هذا المثال تحديدا ما هو أعمق وأبعد مما حاولت لورين توثيقه، أي النسبوية في العلم. فمضمون نظرية الألوان إن صح علميا فإنه إنما يؤدي إلى ما أدت إليه الثورات الفيزيائية الحديثة، كثورة الكوانتم، من مرامي فلسفية، هذه المرامي تشي بأننا حين نقصد بوعينا العالم، فإن ما نراه حقا ليس العالم كما هو، وإنما هو تمثلاتنا له، وما اتفاق أغلب البشر حول موضوع ما من موضوعات العالم الخارجي إلا لواحدية قوانين الواقع - البعيدة عن متناول إدراكنا بعدا يكاد يكون نهائيا - بالنسبة لذات الإطار المرجعي من ناحية، وللتطابق - التقريبي، وذلك إذا ما استثنينا بعض الحالات الشاذة المتمثلة في المصابين بخلل فيسيولوجي وكيميائي في المخ (المرضى العقليين) - بين وظائف الدماغ بين البشر تقريبا من ناحية أخرى. وإن صحت نظرية جوته فإنها تمثل تأكيدا من داخل العلم المادي الفيزيائي والفسيولوجي على هذه الرؤية، ومن ثم فإن الحديث عن الموضوعية والحيادية المطلقة إنما يعد - بعد هذه الإثباتات - ضربا من اللغو.

بالإبر أو العلاج بالأعشاب القديمة موضع التنفيذ، وهما مجرد أمثلة بسيطة»[1] مما يدعم كون النسبوية كمنهج يمثل ضرورة معرفية في ظل الأوضاع الحديثة.

ولكن تظل المشكلة القائمة هي تدعيم النسويات للنسبوية الثقافية والتاريخية والاجتماعية في حين تنكرهن للنسبوية الإبستمولوجية، وعلى الرغم من عدم إنكار لورين للأهمية الكبيرة للنسبوية الثقافية التي سوف تستخدمها هي أيضا كمدعم قوي لرؤيتها لما بعد الاستعمارية، إلا أنها مازالت تعتبر النسبوية المعرفية تمثل الأهمية العظمى، وإنها المدخل القوي للنسوية للتغيير والحد من الظلم والتهميش الواقع على النساء وتغيير المعرفة السائدة والتمكين لهن، فكود دوما ما تهتم بالأساس المعرفي وترى أنه السبيل الأقوى للتغيير، وما دون ذلك سوف يكون طوابق بنائية ولكن دون أساس قوي يصمد لموجات النقد الموجهة للنسوية بشكل عام. لذلك تضع لنا كود مفهومًا جديدًا للنسبوية الإبستمولوجية بحيث يتفادى نقاط الضعف الشائعة في النسبوية، وتقنع النسويات من ثم بأهمية النسبوية الإبستمولوجية وتبنيها كمنهج معرفي تغييري ثوري.

رابعًا: النسبوية الإبستمولوجية

من خلال تحليلاتها السابقة للنسبوية، بينت كود كيف أن النسبوية الإبستمولوجية هي الخيار الأفضل كونها تقدم خيارات متنوعة ومتعددة تتناسب بشكل كبير مع التطورات الحديثة والمعاصرة. ولكن يبقى التساؤل المهم لكود هنا: «كيف قد تحتاج النسبوية لإدخال بعض التحسينات والتعديلات لتتناسب مع السياقات المختلفة؟»[2]، فتحاجج كود بأن النسويات مع العام 1990 أصبحن على دراية ووعي بالرؤية الإمبريالية التي تقف وراء المركزية الأورو - أمريكية والسيطرة الذكورية التي تشكل الحضارة الغربية. وأصبحن أكثر دراية بمواضع الهيمنة في العلم الاجتماعي الوضعي والآثار السلبية التي خلّفها، كل ذلك صب في مصلحة النسبوية التاريخية والثقافية. بالإضافة إلى ذلك، نجد أن الخصائص

(1) Code. L. Rhetorical Spaces: Essays on (Gendered) Locations. P199.

(2) Ibid.P200.

العامة للتاريخ ودراسة الثقافات تثبت مع الوقت كونها متنوعة ومتعددة، ومن ثم نسبوية؛ لذلك آمنت النسويات بالنسبوية التاريخية والثقافية، ولكنهن ابتعدن عن نطاق عمل النسبوية المعرفية لما لها من صورة سيئة في الأوساط العلمية.

وتقول لورين مستشهدة بما قالته ساندرا هاردنج في هذا الصدد: «بالنسبة للنسبوية المعرفية فهي قصة أخرى - كما تقول ساندرا - حتى لو كان تبني النسبوية المعرفية يمكن أن يكون له معنى في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية الأخرى، فإنها تبدو سخيفة كموقف معرفي في الفيزياء أو البيولوجيا»[1]. وتدعم هاردنج دعواها بضرب مثال يبين مدى سذاجة النسبوية الإبستمولوجية وفجاجتها فتقول: «لا توجد معايير عقلية من حيث المبدأ للفصل بين ثقافة تدعي أن الأرض مستوية وثقافة أخرى ترى أنها مستديرة»[2]؛ ومن ثم فإن النسبوية المعرفية موقف ساذج لا يمكننا نحن النسويات أن ننتهجه. وتحاجج لورين هنا بأن المخاوف الغالبة من النسبوية تتمركز في مرور مبدأ «كل شيء يصلح»، مما يؤدي إلى انتشار الفوضى، وكذلك النفي التام لمبدأ المطلق سوف يؤدي بدوره إلى فوضى عارمة، فتبرر كود قلق هاردنج من النسبوية المعرفية بأنها سوف تجمد فكرة وجود ثابت ما: «النسبوية المعرفية سوف تدعم وجهة النظر العدمية المتضمنة في تصريح دوستويفسكي (الذي قاله على لسان إيفان كرامازوف) أنه: «إذا لم يكن الله موجودًا، فكل شيء مسموح»[3].

ولكن كود هنا ترد على قلق هاردنج بأن العلمانية الساحقة التي بلغت العديد من المجتمعات في نهايات القرن العشرين والتي أضحت تؤمن بفكرة موت الإله، لم تسمح لمبدأ «كل شيء يصلح»، كما لم تنشر الفوضى فكرة أنه لا حقيقة مطلقة على الإطلاق، وإنما تمت مناقشة الأمر بالصور المعتادة. ولم يكن هناك شيء مستغرب، والمشكلة الحقيقية للنسبوية الاجتماعية تعود إلى تاريخها السابق وكل ما على النسويات هو إعادة تحديد المفهوم، لذلك تقدم طرح غير مسبوق للنسبوية الإبستمولوجية للخروج من المأزق الراهن.

(1) Ibid.P201.

(2) Ibid.P202.

(3) Ibid.P203.

النسبوية المقيدة Mitigated Relativism[1]

علينا في البداية أن نوضح أن نظرية المعرفة النسوية تقوم على ركيزتين أساسيتين في اختلافها عن الإبستمولوجيا السائدة، وهما:

- الجنوسة.
- موقع العارف.

ويتم تحليل المعرفة، بحسب النظرة النسوية، انطلاقا من دور الجنوسة وموقف العارف، وانطلاقا أيضا من الإطار الثقافي والاجتماعي والتاريخي واللغوي وكل الأطر التي يندرج تحتها هذا العارف. ومن ثم فلن يفلح الأمر مع الموضوعية التقليدية التي تستلزم فصل ذات العارف عن موضوعه، فكان لابد من تفنيد مفهوم الموضوعية التقليدية واستبداله بمفهوم نسوي جديد، فعملت ساندرا هاردنج على بلورة مفهوم «الموضوعية القوية» Strong Objectivity وعرفتها بأنها لا تتجاهل القيم الاجتماعية وإنما تنطلق من خلالها، وبدلا عن عزل العارف، أصبحت تستلزم تفاعل العارف مع موضوعه. والتعبير عن هذا التفاعل في البحث من قبل الباحث يقدم موضوعية أقوى من المعهودة، وتقول هاردنج: «الموضوعية القوية هي القضية المتعلقة - وببساطة متناهية- بأن نتعلم رؤية أنفسنا كما يرانا الآخرون»[2].

وتنطلق الموضوعية القوية أيضا من اختلاف موقع العارف، وهذا الاختلاف يؤدي إلى التنوع في المواقف، وبالتالي تكمن المشكلة في أي موقف تتحقق من خلاله المعرفة

(1) تعني بالإنجليزية «Cambridge dictionary» to make something less harmful, unpleasant,or bad ولذلك وانطلاقا من وصف لورين للمصطلح بأنه مضاد للنسبوية المطلقة أو النسبوية النقية، فربما تكون الترجمة العربية لها النسبوية المقيدة أو النسبوية المحدودة أو النسبوية المخففة، ولكن الباحثة تعتقد بأن النسبوية المقيدة هي الأكثر ملاءمة هنا؛ لأن كود تصف ما تعنيه بالمقيدة بأنها تتقيد بالواقع المادي والاجتماعي والسياسي للأشياء.

(2) نقلا عن، شارلين ناجي هيسي وبايبر باتريشا لينا ليفي، مدخل إلى البحث النسوي، مرجع سابق، ص36.

ونستطيع تحديد الحقيقة؟ وهي عبارة عن خبرات متعددة بمواقع مختلفة، فلم تعد الموضوعية وحدها كافية لأنه ينبغي أخذ كل المواقع في الاعتبار و إعطائها نفس الأهمية، ومن المفترض احترام ذلك، ولكن جويس مكارل نيلسن تقول: «يمكن القول بعدم وجود حاجة إلى تحديد رأي ما باعتباره أكثر صحة من غيره، ولكن سوف تأتي لحظة ما - مثل لحظة ضرورة اتخاذ قرارات مهمة ما - سيتعين فيها تبني رأي ما بشأن الواقع الاجتماعي»[1]

وهنا تظهر الأزمة، هل يتم تفضيل خبرات وتجارب معينة أم ماذا؟ كان الحل بعرض جميع الخبرات ووضعها في نفس المكانة من الأهمية وأنه لا مشكلة بأن تكون واحدة فقط صحيحة، بل يمكننا التحاور مع الجميع ونحاول أن نخلص من مشاركة الأفكار بما يتم الاتفاق عليه و «تشجع هلين لونجينو على تطوير مواقع «الخطاب النقدي» داخل المجتمعات وفيما بينها، بحيث يمكن لأعضاء المجتمع في تلك المواقع التعبير بحرية عن رؤاهم وكذلك الدخول في حوار مع مجتمعات أخرى حيث تختلف الخلفية المشتركة»[2]

وهنا تتقدم رؤية جديدة، وهي أن تتمثل الموضوعية في «المشترك بين الذوات» Inter - subjectivity. ومع الوقت ازداد الأمر تعقيدا وكان لابد من وجود حلول أخرى، وتم الانتقال من الموضوعية إلى النسبوية مما يعني الكل على حق والكل صحيح انطلاقا من مطابقة آرائه للإطار الاجتماعي والثقافي الذي تنتمي إليه المعرفة المنتجة.

تناصر لورين النسبوية النسوية وتؤكد على ذلك بقولها: «المعرفة نوعيا متغيرة، فبعض المعارف تكون أفضل من أخرى، النسبوية هي الاختيار الجيد، حيث إنها تضع في اعتبارها الاختلافات النوعية تلك وتقوم بتحليل تأثيرها على عملية المعرفة»[3] ولكنها في الوقت نفسه ترى أن المصطلح فضفاض وغير محدد بدقة مما يفتح الباب لموجات عاتية من النقد لما يسمي مبدأ « كل شيء يصلح» أو « كله ماشِي»، وتؤكد على أنها أثارت الأذهان بشأنها وهذا ما

(1) المرجع السابق، ص126.

(2) المرجع السابق ص126.

(3) Code, Lorraine, What Can She Know? P4.

حدث بالفعل في «مؤتمر الجمعية الفلسفية الأمريكية الذي عقد في العام 1997 بعنوان: «النسبوية الثقافية والنسوية العالمية»، ووجهت الخطابات للأعضاء ليقدموا اقتراحات لمعالجة المعضلة البادية التي تطرحها المتطلبات المعيارية للنسبوية الثقافية حين تتصادم مع العقيدة الأخلاقية التي يتمسكون بها بشأن ما هو عدل وحق، وأن يقترحوا نموذجا نظريا لمواجهة التهديد الإمبريالي الثقافي المتضمن في «الاستراتيجية العالمية المتفائلة للمقاربة النفعية... التي تدعمها العقلانية الأخلاقية»[1].

جاءت النسبوية إذن كمقابل للمطلقية، ولكن كانت النتيجة أن كلا المفهومين يؤديان إلى نتائج غير مرضية أو متحققة على أرض الواقع، فلا هناك مطلقات ثابتة ولا ثمة نسبوية مطلقة. ومع ذلك، كانت الإبستمولوجيا النسوية ينبغي لها أن تكون نسبوية؛ لأنها تستلزم إدخال عناصر هي نسبوية من حيث لم تكن النسويات تحتسبن، كجنس العارف وموقعه وظروفه كما ذكرنا سابقا. وهنا تجد لورين مخرجا من المأزق، وذلك بأن نستغني تمامًا عن صفة الإطلاق هذه على كلا الجانبين، أي إطلاق المطلقية و إطلاق النسبوية، وأن نفتح باب التنوع والاختلاف بدلا عن التحديد والإثبات والإطلاق المفترض في النسبوية بصورتها الكلاسيكية والمطلقية كذلك.

تحلل كود النسبوية الثقافية التي سوف تصل بنا إلى الذاتية النقية و إعطاء أهمية كبيرة للذات بالصورة النسوية المطروحة، وتدخلها تحت بند «النسبوية المطلقة» التي سوف تحيد عن الأهداف النسوية وتصب في مصلحة الهيمنة والسيطرة مرة أخرى، حيث إنها تعظم من قيمة الذاتية بشكل يصل بنا إلى الذاتوية. فالنسبوية المطلقة كما طرحتها النسوية تعلي من قيمة الفردية لدرجة تصل بها إلى العظمة وتجعلها تقترب من أصحاب نظرية الأنانة (نظرية تؤمن بالأنا فقط)، وهنا تحاجج كود بأن تعظيم الأنا إلى هذه الدرجة سوف يبعدها عن رؤية الأشياء كما هي في الواقع، وسوف يكتفي العارف بأناه المتضخمة في رؤية الأمور من منظوره

(1) لورين كود، كيف نفكر تفكيرًا عالميًا: توسيع حدود الخيال، أوما ناريان وساندرا هاردنج، نقض مركزية المركز: الفلسفة من أجل عالم متعدد الثقافات بعد استعماري نسوي، مرجع سابق، صـ124.

الخاص المتقيد، والذي ينطلق برؤية حادة ليس بها احتمالية للخطأ، وهذه الرؤية لا يمتلكها البشر عموما، فهم لا يستطيعون الإلمام بكل جوانب الرؤية ولا يستطيع القيام بذلك إلا الإله، لذلك فالنسبوية المقيدة تضع في اعتبارها المنظورات المختلفة التي تنتج عن الرؤية المحدودة للذوات العارفة، ويكون مرجعها الواقع، مما يضمن درجة أعلى من المصداقية.

ونجد أيضا أن النسبوية المطلقة المطروحة من قبل الفلسفة النسوية سوف تجعل الكثير من الممارسات الظالمة للمرأة والمجتمع نسبية ومقبولة، مثل العنصرية والطبقية والتحيز الجنسي وغيرها مما ترفضها النسوية: «النسبوية المطلقة تدعم وتقوي التسامح المفرط غير المسؤول، والذي يشمل أيضا التسامح مع التحيز الجنسي والعنصرية والطبقية ورهاب المثلية والعديد من ممارسات القمع الأخرى»[1] فهي من المنظور النسبوي تنتمي لإطار محلي لا دخل لنا به؛ ومن ثم فكل المعارف صحيحة ولا معايير للحكم وسوف يقع الضرر الأكبر في النهاية على المرأة.

وتنتقل بنا لورين من النقد للنسبوية النسوية إلى وضع حلول للأزمة التي أثارتها هذه النسبوية، ويكمن الحل في أرضية وسط بين النسبوية المطلقة والموضوعية: «في الأرض الوسطى لا يوجد مطلقية أو نسبوية أو غيرهما، فالمشاركة في المناقشات التي تدور حول مستويات من الموضوعية/ النسبوية يعمل لصالح الثنائيات الخاطئة. طبقا لي، أيهن تتجه صوب النسبوية تعد رفضا مريحا للواقعية»[2]. وعليه، ينبغي أن تتحاشى النسوية هذه الثنائيات الخاطئة، وأن تسير في أرض وسطى بين حدي النقيض، وتعمل على وضع الذات في الاعتبار، ولكن بالحد الذي لا يسمح بتمرير مبدأ « كل شيء يصلح»، وتتمثل هذه الأرض الوسطى في نظر لورين في مفهوم النسبوية المقيدة.

وتبين لورين أنه سياسيا لا تستطيع النسويات أن يقررن بالنسبوية المطلقة؛ لأن ذلك سوف يضر بالأجندات السياسية النسوية، فمثلا مقولة مثل «ثبت علميا»

(1) Code, Lorraine, What Can She Know? P319.

(2) Ibid.

التي قد يندرج تحتها الكثير من الأمور التي لا تتفق ووجهة النظر النسوية، ولكنها في ذات الوقت، ومن منطلق النسبوية المطلقة، لا يحق للنسويات الاعتراض عليها، لأنهن لا يملكن معيارا يقمن عليه الحكم: «لن تؤخذ العديد من دعاوى المرأة في الاعتبار مثل ما أثبته العلم مثلا عن طبيعة المرأة المتدنية عن الرجل، أو ادعاء سلامة المخدرات وسلامة وسائل منع الحمل للمرأة، أو أضرار المبيدات الحشرية أو الطاقة النووية. وهذا انطلاقا من أن هناك وجهات نظر متعددة، وكلها على قدر من الصواب؛ وذلك لأنها لدى بعض الناس تراها مضرة والبعض الآخر يرى العكس»[1]. فعلى المرأة إذن أن تنطلق من الواقع لكي تستطيع إثبات الكثير من القضايا المهمة بالنسبة لها مثل العنف والتمييز الجنسي، مثل هذه الأمور ليست افتراضات عقلية لدى الذوات العارفة، وإنما هي ممارسات يقرها الواقع.

ومما سبق يتبين أن النسبوية المطلقة على الطريقة التي عرضت لها النسوية تعمل على تقديم العديد من صور القمع المعرفي عن المرأة، والتي لا يسع المرأة فعل شيء حيالها، ولذلك فإن لورين تقترح حلا لهذه الأزمة في دمج النسبوية الثقافية مع النسبوية الإبستمولوجية بحيث ينتج لنا نسبوية مقيدة على حد تعبيرها، تتلافى عيوب النسبوية الثقافية وتكون أكثر تحديدا وأقل عرضة للنقد: «فإني أقترح أن التفكير العالمي المسؤول لا يتطلب النسبوية الثقافية فقط، بل أيضا نسبوية إبستمولوجية مقيدة مرتبطة بنزعة ارتيابية صحية»[2]

(1) Ibid.

(2) لورين كود، كيف نفكر تفكيرًا عالميًا، مرجع سابق، ص127.

العقلانية الأخلاقية، هو اتجاه حداثي يريد إرجاع الأخلاق إلى العقل وحده باعتباره أعدل الأشياء قسمة بين الناس، بحسب ديكارت. وهذا التصور عن العقل قد جلب الكثير من ويلات الأوهام على الفكر الإنساني والذي تطلب الخلاص منه جهدا كبيرا، إذ أن كانط التقط هذا التصور عن العقل على علاته، والذي التصق به مفهوم «البديهة»، ليقيم عليه مذهبه الأخلاقي القائم على العقلنة باعتبار العقل يولد بمقولات وقوالب موحدة بين البشر في كل مكان وزمان، لا باعتباره ـ وهذه هي النظرة الحديثة - بناء، وحداته الأساسية هي عناصر البيئة والثقافة والسياق الحضاري والاجتماعي.

يتم تقييد النسبوية عن طريق رجوعها إلى حقيقة الأشياء الواقعة، وليس فقط مجرد أفكار بين الذوات العارفة في عالم مجرد، حتى لا تكون النتيجة كما سبق وصفها. فالنسبوية المقيدة التي اقترحتها لورين تضع المنظورات المختلفة في الاعتبار كما تريد النسوية، ولكنها تضيف إلى ذلك كونها مقيدة، فتقول لورين تعبيرا عما سبق: «النسبوية المقيدة»، وهي مقيدة لأنها «مقيدة بحقائق الأشياء المادية والآثار الاجتماعية والسياسية، ولكنها في ذات الوقت تخضع لاعتبارات آليات السلطة (في الفهم الفوكووي/ من فوكو) والتحامل أو التعصب في (الفهم الجادمري / من جادمر) وتنتج معرفة لهذه الحقائق، وهذه المعرفة تلتزم بموقف المعايير الذاتية ولكي تقيدها أو تقلل منها يتطلب ذلك صورة جديدة للنسبوية تكون مقيدة بشكل كامل بالواقع المعرفي»[1]

«إن افتراض كونها يجب أن تكون مقيدة يؤكد على أن ثمة شيء هناك في العالم لنعرفه ونعمل عليه، على الرغم من القيود المحتملة للمعرفة والتحليل» [2]

والبحث النسوي عموما ينبغي النظر له على أنه مجموعة من وجهات النظر، ولكنها ليست الأفضل كما يظهر من النسبوية المطلقة، وذلك حتى لا تظهر بمظهر من مظاهر العظمة الأيديولوجية، والنسبوية سوف تواجه نفس التهمة.

وترد كود على دعاوى نقد النسبوية من منطلق اقتراحها السابق للنسبوية المقيدة فتقول: «يتم توجيه النقد للنسبوية لأنها تستتبع أو تستلزم اللامقايسة، لا تستطيع النسبوية تقييم دعاوى المعرفة نسبيا أو على نحو مقارن، ويستند هذا الحكم على أن النسبوية المعرفية تستتبع نسبوية المفاهيم، والتي بدورها لها سياقات اللغة وسياق المعرفة، مما يعني أنه لا يوجد إطار لغوي محايد للمناقشة ومن ثم القبول أو الرفض»[3]. وبناء عليه تبقى الأمور معلقة ولا توجد أرض مشتركة نقف عليها، وربما هذا ما كانت تقصده لورين من شعارها: «فكر عالميًا وتصرف محليًا» وربما أيضا يمثل التعددية الثقافية كما طالبت من قبل،

(1) Code, Lorraine, What Can She Know? P.321.

(2) Ibid.P.320.

(3) Ibid.P3.

ولكـن في النهايـة لن يكون هناك علـم عالمي أو معرفـة واحدة ولا معايير عالميـة للتقييم، وهذا ما يرفضه العلم، فالعلم عالمي وواضح وثابت من بيئة ثقافية لأخرى.

كما أن الانتقاد الأشـهر للنسـبوية هي أنها تستلزم اللامقايسة، وهذه اللامقايسة تصل بنا إلى عدم إمكانية تقييم دعاوي المعرفة المختلفة لأنها تسـتلزم الإطار المفاهيمي واللغوي والاجتماعـي والثقافي. هذا كله يؤدي بنا في نهاية المطاف إلى عدم القدرة على تحديد ما يعد معرفـة ومـا لا يعد معرفة، لأنه لا توجـد معايير عامة وعالمية يمكـن اتباعها للحكم، وهذا سـوف يسـاعد على تدعيم وجهة نظر المتشـككين في إمكانية امتلاك المعرفة من الأساس. لذلك، على النسبوية الإبستمولوجية وضع استراتيجية لتجنب ما سبق لكي يتم الاعتراف بها وتتحاشى كل هذا الانتقاد والرفض.

وتصـل كـود بتحليلاتها إلى أن النسـبوية النسـوية بالمفهوم السـائد سـوف تؤدي إلى لا شيء، فهي مفرطة في التسـامح الغير نقدي والغير بناء، وسـوف تجعل الأمور تبدو عائمة بشـكل يصعب تقبلها، وتفتح الباب على مصراعيه لقبول العقلانية العلمية رغم مسـاوئها. وانطلاقا مما سـبق، ترى لورين أن المعضلة الأساسية تتبدى في كيفية تقييم دعاوى المعرفة وكيفيـة الحكم على ما يعد معرفة ومالا يعد معرفـة، وكيف نصل إلى ذلك بدون الركون إلى العقلانية المجحفة أو الإبستمولوجيا السائدة، وهذا ما سوف تحاول إيجاد حلول بديلة له.

ومما سـبق يتضح لنا أهمية النسـبوية على المسـتوى المعرفي، والتي تؤكـد لنا على أهمية النسبوية الثقافية على وجه التحديد. وهذا ما جعل لورين تؤكد على مبدأ عدم تماثل العالم، أي عدم تماثل التصورات والرؤى للعالم بالنسبة للثقافات المتباينة، ومن ثم اختلاف معايير الحق والعدالة من مجتمع لآخر، ورفعت شعار: «فكر عالميا وتصرف محليا» How to think globally stretching the limits of imagination، أي فكـر عـلى المسـتوى العالمـي لكن حينما تطبق انظر للواقع المحلي لأفكارك.

كـما تؤكد لورين على أن العلم العالمي أو التفكير العالمي لن يصلح للجميع، ووصفت المطالبـات التي تدعـم مثل هذه الآراء بالإمبرياليـة الثقافية والاسـتعمار، وأن الدول التي

تنادي به وتدعو إليه ما هي إلا دول لها أغراض استعمارية، وهذا ما يؤكده الواقع؛ فالدول الاستعمارية هي التي تهتم بمثل هذه الموضوعات وتعقد لها المؤتمرات وتحاول فرضها، أما باقي الدول فلا مشكلة لديها.

تنتقد كود بشدة الثقافة الأمريكية باعتبارها ثقافة استعمارية مهيمنة، وتحاول أن تحلل لنا إمكانية قيام نسوية عالمية قائمة على النسبوية بمفهومها الجديد الذي يجمع بين النسبوية الثقافية والنسبوية الإبستمولوجية، وتحاول أن توضح أن النسبوية، ورغم مساوئها إذا طُرحت بشكل مفتوح، إلا أنها أفضل مائة مرة من الإمبريالية الثقافية، وتحاجج لورين بأن النسوية العالمية تحاول أن تنظر بمنظور مختلف للقضايا النسوية على اعتبار اختلاف البيئات الثقافية واختلاف المفاهيم والقيم الأخلاقية كذلك، لذلك تؤكد على أن النسوية العالمية يجب أن تتصف بصفة النسبوية.

ومن خلال ما سبق، تقوم النسبوية الإبستمولوجية بتشكيل النسوية إلى الحد الذي يمكن اعتبارها سمة مميزة لها.

الخلاصة

يمكن اعتبار النسبوية الإبستمولوجية براديم جديد للنسبوية الكلاسيكية «سيئة السمعة»، تمد به كود جسرا بين الماضي والحاضر، تحاول أن تتخلص من ماضيها المزعج وتبني لها حاضرا مقبولا ترى أنه ضرورة لا غنى عنها للفلسفة النسوية لأنها تعمل على تدعيم أفكارهن. وقد حاولت كود تأسيس دعائم قوية للنسبوية الإبستمولوجية تجعلها تتلافى الانتقادات القديمة وتحاول أن تقربها من الأذهان النسوية ليتم اعتبارها برادايم ثوري جديد في نظرية الإبستمولوجيا النسوية، وعلى الرغم من الانتقادات النسوية الحادة صوب النسبوية الإبستمولوجية إلا أن لورين قدمت طرحا مبتكرا ومقنعا، وذلك من خلال تحليلها لجذور نشأة المصطلح والذي تشكل على أساسه الرفض الحالي للنسبوية، ولم يفكر أحد بالبحث في الأساس لمعرفة التطور التاريخي للنسبوية وفهم الأسباب الحقيقية لرفضه والتي تعود بالأساس، كما تقول كود، إلى النزعات الاستعمارية والإمبريالية التي تحاول أن تظل هي المتحكمة والمسيطرة على الوضع المعرفي العالمي.